علم مشكلات المناسبة في القرآن الكريم في ضوء الربط التداوليّ

Science of Appropriate Problems in the Holy Koran in the Light of the Deliberative Link

محمّد ياسين بريط [1]*، عبّاس لعشريس [2]

[1]المركز الجامعي مغنية (الجزائر)،yassineqtr7@gmail.com،

مخبر المعالجة الالية للغة العربية . تلمسان

[2]لمركز الجامعي مغنية (االجزائر)،ibnjini1976@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 05-05-2023 تاريخ القبول: 27-10-2023 تاريخ النشر :27-10-2023

ملخص البحث

يحاول هذا البحث النظر في علوم القرآن وخاصة علم مشكلات التناسب قصد استخراج ما في هذا العلم من آليات وطرق تسمح لإدراك أوجه الربط والتناسب بين أجزاء النّص القرآنيّ وذلك حين تتعارض أجزاء النّص القرآن ويغيب عنهم الربط الدلاليّ بين الآيات المتجاورة، ولا يبقى أمام علماء القرآن إلّا الاستعانة بالرافد التداولي المتمثل في السياق الخارجي والمعرفة الخلفية المُخزَّنة في ذهن المتلّقي. وسيركز البحث على مشكلات المناسبة بعدّها أكثر علوم القرآن وأوضحها التي يظهر فيها الربط التداوليّ وينتقي من الأمثلة المبثوثة في هذا العلم ما يتوافق مع ما وصلت إليه لسانيات النّص وتحليل الخطاب في هذا الميدان.

وينطلق البحث من الإشكالية التالية: كيف استطاع علماء القرآن بيان الترابط بين الآيات تداوليا؟

الكلمات المفتاحية: مشكلات المناسبة – الربط – السياق – المعرفة الخلفية.

Abstract:

This research attempts to look at the sciences of the Qur'an, particularly the science of problems of proportionality, with a view to extracting the mechanisms and ways in which this science can recognize the links and proportionality between the parts of the Qur'an text when the parts of the Qur'an text conflict and lose sight of the semantic link between the adjacent verses. The research will focus on the problems of the occasion, after which the most obvious of the sciences of the Koran is that the deliberative link appears and selects from the examples given in this science what is in line with the status of the text and the analysis of the discourse in this field.

Keywords: Problems of relevance - linkage - context - background knowledge.

1. مقدمة:

*المؤلف المرسل: عبّاس لعشريس [2]

الحقيقة التي يقرّها المعتنون بكيفية ترابط النصوص والخطابات أنّ أدوات الربط اللغوية لا تكفي وحدها ليحدث الانسجام والترابط بين أجزاء النّص، ولذلك يلجؤون إلى مقاربة أخرى تصف الترابط والانسجام بشكل واضح وجليّ ، وهذه المقاربة لا يكون فيها أيُّ أثر للوسائل اللفظية أو الدلالية التي يُبيّنها ظاهر النّص، ولأنّ علماء القرآنِ قد اهتمّوا بدراسة التناسب والترابط بين أجزاء النّص القرآني، وبيّنوا كثيرًا من الآيات التي لم يَبِن لهم وجه الاتصال بينها لا يظهر وجه تناسبها إلّا بعد تأمل كبير، جاءت هذه الدراسة لتكشف المنهج الذي سلكه علماء القرآن في إماطة الإشكال عن الآيات التي أُشكل لهم فيها وجه التناسب بينها، ولا تكتفي الدراسة بذلك بل تحاول أن تبين بوجه دقيق أهم نقاط الالتقاء بين المنظور العربي التراثي المتمثل في علوم القرآن والمنظور الغربي المتمثل في لسانيات النّص وتحليل الخطاب.

وتطرح الدراسة إشكالية كبرى تنطلق منها: كيف استطاع علماء علوم القرآن بيان الترابط بين الآيات تداوليا؟ وتأتي أهمية هذه الدراسة –وإن كانت موجزة– في أنّها تحاول مدّ جسور الالتقاء بين اللسانيات النصيّة الحديثة وتحليل الخطاب ومناهج علماء القرآن في الكشف عن أسرار ترابط النّص والخطاب وانسجامهما.

2.تعريف المصطلحات:

1.2 تعريف الترابط التدّاولي:

الترابطُ والانسجام أمرانِ يقوم بهما متلقي النّص من غير اعتماد على الأدوات اللغوية، وبهذا أصبح مفهوم الترابط النّصي متنقلا من "كونه جاريا بين وحدات النّص مدلولا عليه بقرائن ومؤشرات لغويةٍ إلى كونه عملًا ذهنيًّا ينشئ به الشخصُ ذلك الترابط إنشاءً إيجابيا أثناء التمثيل الذهني لمضمون النّص، فالانسجام كائن في التمثيل، وليس في الحامل اللغويّ المنجز

[1]وانطلاقا من هذا أصبح يُفرَّقُ بين الترابط الدّلالي القائم على لغة النّص والترابط التدّاولي الذي يعتمد على معلومات خرج النّص.

يُذكر الترابط التداوليُّ في ميدان لسانيات النّص وتحليل الخطابِ مقرونا بمصطلحي الترابط الدّلاليّ والترابط الشكلي، فإذا كان الترابط الشكليُّ يُعنى بالعلاقات الشكلية المحققة للتّواصل الشكليّ في نصّ ما، والترابطُ الدّلاليّ برصد العلاقات المعنوية بين أجزاء نصٍ أو خطابٍ ما، فإنّ الترابط التدّاوليّ هو تلك "العلاقة بين النّص وما يحيطُ به خارجيّا، إذ يُسمّى ترابط عناصر النّص فيما بينها تماسكاً دلاليا، ويُسمّى ارتباطُ النّص مع السياق غير اللغوي تماسكًا تداوليًّا"[2]. ويُقصد بالسياق غير اللغويّ مجموع الملابسات التي تحيط بنص من النّصوص، وتُقاسُ درجة التماسك والترابط في النّص بالنسبة للسياق الذي يظهر فيه.

إذن الترابطُ التداوليّ هو "الربط الذي يربط النص بمنشئه، النّص في أصله الشفهي كوحدة في إطارها المرجعيّ، إذ تتوفر فيه العنصر الواحد والمكان الواحدُ والظروف السياقية الخاصة، وهذا ما يوفر دعما للتماسك التداوليّ، لا يمكن أن يتوفر في النّص المكتوب"[3]، ولأنّ التدّاولية "تولي اهتماما بالغا بالمتلقي بوصفه الطرف الأخر في عملية التواصل اللغوي وفي المحادثة وغيرها من أشكال التواصل اللغوي، وأنّ هذا الطرف يشكل بوجه ما سلطة على المتكلّم، إذ يراعي المتكلم ما يقتضيه حال المخاطب مهما كان شأنه الاجتماعي"[4]. فإن الترابط التداوليّ يستد إلى ما يعرفه المتلقي عن عالم النّص وما يُخزّنهُ من معلومات متعلقة به، فبناءُ هذا الترابط يقومُ على استحضار تلك المعلوماتِ التّي يكون متلّقي النّص قد خزنها في ذهنه، فينتقل بذلك الترابط من كونه شيئا معطى في النّص إلى كونه شيئا موجودًا خارج النّص، وهذا ما اجتهد في بيانه وتوضيحه محاولات براون ويول، حيث ذهبا إلى أنّ انسجام النّص وترابطه يأتيه لاحقا عند تأويل المتلّقي له، فالنّاس "لا يعتمدون في فهم النّص على مجرّد ما يُقدّمه لهم من معرفة ومعلومات بل يعتمدون أيضا وربّما بدرجة أكبر على ما تختزله ذاكرتهم من معلومات ومعارف وخبرات (معارف العالم) حيث تلتقي هذه المعرفة مع المعرفة التّي يُقدّمها النّص فيكون المفهوم المتحصّل عليه أو المحتوى المدرك إنّما هو نتاجُ تفاعل هتين المعرفتين: معرفة العالم ومعرفة النّص"[5].

2.2 تعريف المعرفة الخلفية:

يُقصد بالمعرفة الخلفية أنّ القارئ "حين يواجه خطابا أو نصّا ما لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، وإنّما يستعين بتجاربه السابقة، تجمعت له كقارئ متمرس"[6]، ومن ثمّ أصبح البحث عن أسباب ترابط النّصوص والخطابات معتمدا على معرفة كلّ ما يحيط بالنّص إذ يُمثل الترابط هنا "عملية سحب للمعلومات من الذاكرة واسترجاعها وربطها بالخطاب الذي يتفاعل معه"[7].

ولغرض معرفة تنظيم المتلقي لتلك المعلومات في ذهنه ظهرتْ محاولات تكفل بها اختصاصان هما: الذكاء الاصطناعيّ الذي قدّم مفهوم الأطر والمدوّنات، وعلم النفس المعرفي الذي قدّم مفهوم السيناريوات والخطاطات، يقول محمّد خطّابي: "ولا يعني اختلاف الاختصاص أنّنا أمام نظريات متنافسة بقدر ما هي استعارات بديلة لوصف كيفية تنظيم معرفة العالم في ذاكرة الانسان وكذا كيفية تنشيطها في عملية فهم الخطاب"[8]. ومعلوم أنّ إدراك ترابط النّص يندرج عموما تحت فهم الخطاب، ونعرضُ فيما يلي أهم تلك المفاهيم المنظمة للمعلومات في ذاكرة الإنسان:

1.2.2 الأطُر:

يُعرّفُ الإطارُ بأنَّهُ الطّريقةُ التّي يتعامل بها الإنسانُ مع وضعية جديدة فالإنسانُ "لا يعتمدُ في هذه الحالة إلى أن ينتخب من ذاكرته بنية تُسمّى إطارا، ويقوم بتكييف هذه البنية المخزنة في الذاكرة لكي تلائم الوضعية الجديدة، وذلك بتغيّير التفاصيل عند الضرورة"[9]،وممّا تجدُرُ الإشارةُ إليه أنّ نظرية الإطار لا ترتبطُ في الأصل بالظواهر اللّغوية، إلّا أنَّ بعض الدّارسين استطاع أن يستثمر هذه النظرية في تحليل الخطاب، والبحث في كيفية ترابط النّصوص والخطابات، وممّا يُمكن أن نُمثل به هنا ما يلي:

دَفَعَ البَابَ، كَانَتِ الغُرْفَةُ خَالِيَةً.

للبحث عن العلاقة التي تربطُ جُزْئَيْ هذا المثال يسوق فيلمور قوله: "نحنُ نجعل الجملتين منسجمتين بِأنْ نفترض أنّ الهدف الذي يسعى إليه شخصٌ ما من دفع بابٍ هو فتحُ ذلك الباب، وعندما يتمكنُ من الدّخول بعد أن يفتح الباب بواسطة عمل الدّفع، فإنّهُ يكون في وضعٍ يسمحُ له بأن يُلاحِظ إنْ كانت الغُرفةُ خاليةً[10] ."

2.2.2 المدونة:

هي مفهوم "وُضِعَ أساسًا للتّعامُلِ مع متواليات الأحداثِ، ومِن ثمّ فهي مبرمجةٌ بدقة إذ أنّها تتضمن متوالية معيارية من الأحداثِ تصفُ وضعية ما"[11]، وينظر أصحابُ نظرية المدونة إلى مفهومها "على أنّه نوعٌ من

التّخصيص لفكرة الإطار التي جاء بها مِنسكي، والغرضُ من هذه النظرية هي البحثُ عن كيفية انسجام الخطابِ، بل هو بحثٌ في عملية الفهم البشريّ ذاتها"[12].

وقد جُرّب تطبيقُ المدونة على الحاسوب لفهم القصص، حيثُ زُوّدَ بقصة تروي حادثة سيرِ ثُمّ طُرِحت عليه أسئلةٌ يقتضي بعضها القيامَ بنشاطٍ استدلاليّ نتيجتهُ أنّهُ إذا جُرِحَ شخصٌ وعولجَ في المستشفى وغادر دون أن يبقى طويلا فيها؛ فذلك يعني أنّه جُرِحَ جُرْحًا خفيفا، وقد توصل الحاسوب إلى أنْ يستنتجَ أنّ المصابَ جُرِحَ جُرْحًا خفيفا دون أن يَرِدَ في القصة ما يدّل على ذلك، وقد اعتمد الحاسوب على معرفته السابقة المطبقة على جزء النّص الذي واجهه.[13]

3.2.2 السيناريو:

يُستَعمَلُ مفهوم السيناريو لوصف "المجال الممتد للمرجع المستعمل في تأويل نصٍ ما، وذلكَ لأنَّ المرء يُمكنُ أن يُفكر في المقامات والوضعياتِ كعناصر مُشكلة للسيناريو التأويلي الكامن خلف نصٍ ما"[14].

فلو أُفتُرِضَ مثلا نصٌ موضوعه (الذهاب إلى الملعبِ)، فإنّ قارئ هذا النّص سيعتمدُ على تنشيط سيناريو الملعب؛ أي ما خُزّنَ في ذهنه من معرفةٍ مُكتسبة مُسبقًا من تجربة الذهاب إلى الملعبِ، وما يتصل بذلك من عناصر يتوفرُ عليها الملعبُ عادة من لاعبين وجمهور وحَكَمٍ وفريقٍ تدريبيّ، وأرضية لعبٍ، وكرةٍ وما إلى ذلك، ويتضمنُ سيناريو الذهابِ إلى الملعبِ ترتيبا متسلسلا ومتتابعا للأحداث مثل الدّخول إلى الملعب والجلوس في المدرجاتِ وانطلاق المباراة، وتسجيل الأهداف وصولًا إلى انتهاء المباراة والانصراف من الملعب، ولا يجب أن تُذكر العناصرُ المتصلة بالسيناريو جميعُها، لكنّ تَمَثُّلَ القارئ الذهني لنصٍ يتناولُ موضوع الذهابِ إلى الملعبِ لا بُدّ أن يُخصص لكل عنصرٍ من تلك العناصر المكونة للسيناريو، سواءً ذُكِرَت في النّصِ أم لم تُذكر[15]

4.2.2 الخطاطات:

تُعرَّفُ الخطاطاتُ بأنّها "بنْيَاتٌ معرفية تضّم توجهاتٍ حتمية تُهيّئُ المجرب لتأويل تجربةٍ ما بطريقة ثابتة، وكمثال على ذلك الأحكام العُنصرية المسبقة التي يُصدِرُها جنسٌ بشريٌّ مُعيّنٌ على جنسٍ آخر مثل صورة العربيّ التي تشكلت لدى الأمريكيّين، ومن ضمن مكوّناتها أنّ العربيّ إنسانٌ جاهل وهمجيٌّ وكسولٌ..."[16]. والخطاطةُ أداةٌ معينةٌ في تفسير عمليات ترابط الخطابِ وتأويله، ويُمكنُ أن نُوضّح ذلك بما يلي :

أ- لقد تأخرت سيارةُ الأجرةِ، لم يتمكن السائقُ من العثور على المنزل.

ب- لقد تأخرت سيارةُ الأجرةِ، لم يتمكن الملّاحُ من العثور على المنزل.

فالمثال (أ) جُزآهُ مترابطانِ ومنسجمانِ؛ وذلك أنّ خطاطة سيارة الأجرة تقتضي أنّه لا بدّ لسيارة الأجرة من سائق، وأنّها تُقلّ الأشخاص من منزلهم، أمّا المثال (ب) فيظهر غير مترابط لأنّ خطاطة (سيارة الأجرة) لا تسمحُ بأن يتولى الملّاحون قيادتها[17] .

وينتهي براون ويول إلى أنّ الخطاطات تُزوّدُ محلل الخطابِ بطريقةٍ لتفسير الخطاب وتأويله، وهي بذلك وسيلته لتمثيل تلك المعرفة الخلفية التي كنّا نستعملها كلّنا، ونفرضُ أنّ الآخرين يستطيعون استعمالها أيضا، حين ننتجُ أو نُؤوّلُ الخطاب [18].

وممّا يلاحظُ أن هذه النظريات وإن تعددت أسماؤها ومفاهيمها إلّا أنها تبدو متقاربة بنحوٍ لا نستطيعُ أن نضع بينها حدودا كونها تعتمد كلُّها على المعرفة القائمة في ذهن القارئ.

3. نماذج من مشكلات التناسب في علوم القرآن:

المتأمّل لكتب علوم القرآن والتفسير يلاحظ كثرة العلوم التي عُنيت بمسألة الربط والانسجام بين أجزاء القرآن الكريم، ومباحثُ الترابط بين الآياتِ والسور إمّا أن تكون منثورة في علوم شتّى وإمّا أن تكون مجموعة في علم معيّن، ومن بين أهم العلوم التي يكثر فيها الاستعانة بالسياق والمعرفة الخلفية في الكشف عن الترابط والتناسب علم المناسبة، فعل المناسبة من اهم العلوم التي تبنّت فكرة البحث عن أسرار هذا الترابط، ويلحق بهذا العلم العظيم عمان هما: علم مشكلات المناسبة، وعلم مشكل القرآن، وفي هذين العلمين برزت جهود العلماء في بيان أوجه المناسبة والترابط في النّص القرآنيّ، وقد انتهى الباحثون في علوم القرآن إلى أنّ العلاقات والروابط الجامعة بين آيات القرآن نوعان : أ- **النوع الأوّل**: علاقات داخلية ماثلة في المنطوق، وقد تكون مفهومة مستنتجة كالعموم والخصوص، والحسيّة والخيالية، وقد تكون مادية ملموسة كالعلاقات الأسلوبية، وبهذا يمكن للمتلقي أن يدرك العلاقة بين الآية الحالية وما يليها، أو ما يسبقها، كما يمكنه معرفة علاقة أوّل السورة بآخرها بناء على منهج محدد.

ب– النوع الثاني: علاقات خارجية ماثلة في التلازم بين النّص اللغوي والمناسبة التاريخية التي هي سبب وجود النّص، فإدراك المناسبة يقتضي معرفة السياق الخارجيّ، وربط الآية / الآيات به"[19]. والنوع الثاني هو الذي سيركز عليه البحث في الأمثلة التالية:

1.3 قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾–الأنفال: 33– مع قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾–الأنفال –24. فقد نفى العذاب في الآية الأولى وأثبته في الثانية.

وهذا التناقض الظاهر بين الآيتين يفضي عند القارئ إلى خطاب غير منسجم ولا مترابط وبذلك يفقد أهم شروط نصيته التي آمن بها علماء القرآن ودافعوا عنها في مصنفاتهم، فما الكيفية التي دفع بها علماء القرآن هذا التناقض؟

وجواب ذلك في علوم القرآن أنّ النضر ابن حارث قال: (اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو ايتنا بعذاب أليم) يريدُ أهلِكنا ومحمّدا ومن معه عامّة، فأنزل الله تعالى: (وما كان الله معذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أي وفيهم النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم قوم يستغفرون؛ يعني المسلمين، ولما أخرجوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عذبّهم بالسيف فقال[20]: (وما لهم ألّا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلّا المتقون) الأنفال: 24.

وبذلك يتضح وجه الربط والتوافق بين الآيتين ويزول التناقض، ولم يتأتَ ذلك إلّا باستحضار المعرفة الخلفية المتمثلة في ظروف تنزيل الآيتين، وهو المنهج الذي اعتمده علماء القرآن الذي يؤكد سبقهم وعلوّ كعبهم في هذا الميدان.

2.3 قوله تعالى: ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾. القيامة: 14–16

إنّ الانتقال من قوله تعالى: (بل الإنسان على نفسه بصيرةٌ ولو ألقى معاذيره) إلى قوله تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) يطرحُ إشكالًا لدى المتلقي فيظنّ أنّ الآياتِ غيرُ مترابطة ولا وجه للمناسبة بينها،

فالآيات الأولى تتحدث عن موضوع القيامة، والآية التالية لها عن موضوع النهي عن تحريك اللسان بالقرآن على عجل، وليس هناك رابطٌ دلاليٌّ بين الموضوعين يتمكن من خلاله القارئ أن يُدرك وجه الربط بينهما، ويعبّر ابن عقيلة عن صعوبة تلّمس المناسبة في هذا الموضع قائلا: "...إنّ وجه مناسبتها لأوّل السورة وآخرها عسرٌ جدّا، فإنّ السورة كلّها في أحوال يوم القيامة، حتّى زعم بعض الرافضة أنّهُ سقط من السورةِ شيءٌ"[21].

يتبيّنُ هنا أنّ علماء القرآن قد واجهوا صعوبةً في تَبَيُّن وجه الربط والمناسبة بين هذه الآيات؛ الأمر الذي جعل بعض الفرق –بحسب علماء القرآن– تذهبُ إلى سقوط أجزاء من القرآن الكريم فيبدو النّص مفكّكا لا رابط بين أجزاءه، لكنّ علماء القرآن الكريم لم يستسلموا أمام بيان وجه المناسبة والجمع والربط بين هذه الآيات فذكروا لذلك أوجها.

ومن بين أهم الأوجه التي ذكروها في ذلك ما نجده في قولهم: "ولا يخفى ارتباطُ الجملة أو الجمل القرآنية بسائر عناصر النّص التي هي جزء منه إلّا في نحو (التربية المعترضة) كتربية الله لرسوله بأن لا يعجل بالقرآن، فقد جاءت هذه الآيةُ معترضة في سورة القيامة كما يربي المعلّم الطالب ضمن درسٍ من العلم فينهاه أو يأمره ول واجب من واجبات المتعلّم، أو طريقة من طرق التعلّم، ثمّ يستمر معه في متابعة درسه الذي يلقيه عليه"[22].

وهذا الوجه الذي اعتمده علماء القرآن يمكن أن يقال عنه أنّه استدعاء لسيناريو التعليم والتربية؛ حيث يكون المدّرسُ أو المربي يلقي على طلابه درسا فيلاحِظ أن أحد تلاميذه قد فعل شيئا يشغله عن متابعة الدّرس، فيقطع المعلِّم درسه، وينبه تلاميذه إلى الكف عمّا يشغله عن متابعة الدّرس، وبعد فراغه من التنبيه يعود إلى مواصلة إلقاء درسه، فالسيناريو هنا هو سيناريو (التدريس والتربية)، حيث نزّل علماء القرآن الذات الإلهية إلى منزلة المعلّم في قاعة الدرس، والسورة منزلة الدرس، والرسول صلى الله عليه وسلّم منزلة التلميذ الذي يشغله شاغل عن درسه[23]. ويمكن أن نمثل لذلك بالمخطط التالي:

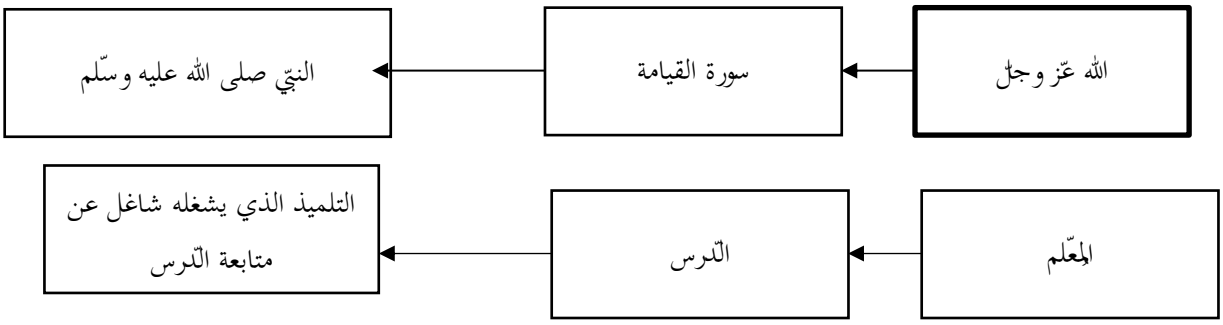

وهناك وجه آخر لا يبتعد كثيرا عن الوجه الأوّل الذي ذكره علماء القرآن، وهو وجه عمد فيه علماء القرآن إلى استحضار سيناريو (الحفظ)؛ يقول ابن عاشور: "صار النبي صلى الله عليه وسلّم يخشى أن ينسى بعض آياتها، فلعلّه صلى الله عليه وسلّم أخذ يحرك لسانه بألفاظ من القرآن عند نزوله احتياطا لحفظه، وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل إليه بنصه، فلمّا تكفّل الله بحفظه أمرَهُ أن لا يكلف نفسه تحريك لسانه، فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة لِما كان يلاقيه في ذلك من الشدّة"[24].

فالسيناريو المستدعى هنا هو أنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم خشي نسيان الآيات القرآنية بسبب سرعة نزولها، فتدخّل الوحيُّ ليصرفه عن ذلك.

وليس الغرض من عرضِ هذه الأوجه هنا إلّا أن يتبيّن منهج علماء القرآن في إدراك كيفية الربط بين الآيات كونه معطًى ذهنيا يتصل بمعرفة المتلقي الخلفية، ولولا ذلك لبقي وجه المناسبة بين الآيات مُشكلا غير واضحٍ.

3.3 **الربط بين قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،البقرة 220 وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾،الأنعام: 152 وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾** . النساء: 10.

وهذه الآيات القرآنية يمكن للقارئ أن يظّن أنَّ وجه ارتباطها ببعضها راجعٌ إلى وجود علاقة لغوية دلالية، أو يفهم أنّ الآيات مستقلة عن بعضها، فإذا اطّلع على أسباب نزولها انكشفَ لهُ أنّ العلاقة خارجية (مقاميّةٌ).

فعلم أسباب النزول يُبيّنُ العلاقة بين هذه الآية الأولى وبما ورد في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾ وعلاقتها كذلك بالآية الواردة في سورة النّساء وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، فالآياتُ وإن بدا الرابطُ بينها لغويا حيث يدور موضوعها جميعا حول (مال اليتيم) إلّا أنّ أسباب النزول تؤكدُ أنّ الرابط ذهنيّ أكثر منه لغويّ؛ وذلك "أنّ الله عزّ وجل لمّا أنزل ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾، وقولَه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي

بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ "انطلق مَن كان عنده مالُ يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه وجعل يفضُل الشيء من طعامه، فيحبس له حتّى يأكله أو يفسد، واشتدّ ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فنزلت الآية"[25]؛ وهي قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

فالجامع كما يُفْهَمُ من قوله هو جامعٌ خارجيّ متعلّق بفهم المتلقي، وإن بدا في ظاهره أنّه لغويّ (داخل النّص)؛ حيث كانت أعمال المؤمنين النّاجمةُ عن فهم الآيتين اللتين في سورة النساء والأنعام سببا في نزول الآية التي في سورة البقرة وفق ما يلي:

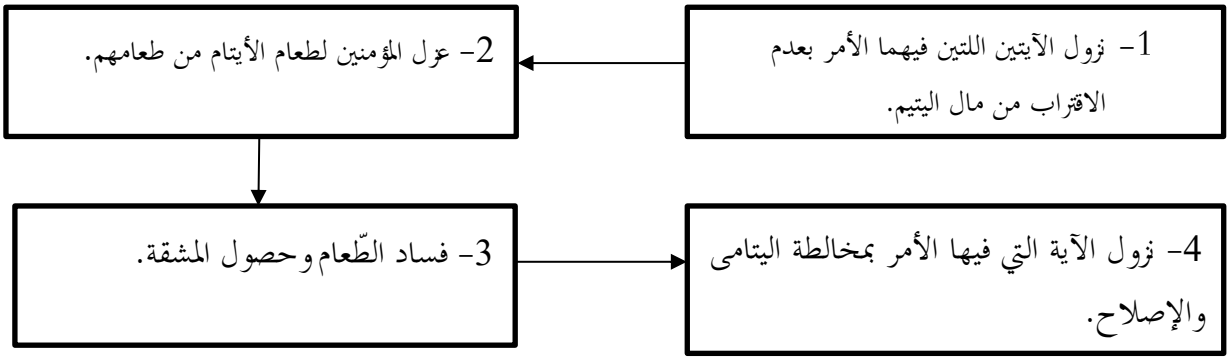

4.3 الربط بين قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، البقرة: 285 وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . البقرة: 284

يورد المشتغلون بعلم أسباب النزول جامعا مقاميا بين هاتين الآيتين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لمّا أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ثمّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالوا: كلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهادُ والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أتريدون أن تقولوا كما قال

أهل الكتابين من قبلكم؟ – أراه قال: سمعنا وعصينا– قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير، فلمّا اقترأها القومُ وجرت بها ألسنتهم أنزل الله هذه الآية"[26].

5.3 لربط بين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، الأنعام: 23 وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ . النساء: 42

يجيب ابن عبّاس دافعا التعارض الذي قد يُفهم بين هاتين الآيتين قائلا: "إنّهم لما أرادوا يوم القيامة، وأنّ الله يغفر لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: (والله ربّنا ما كنّا مشركين)، فختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك (يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا)"[27]، فالأمر الذي جعل الجمع بين هتين الآيتين سائغا وواضحا دون أن يعرض لذهن القارئ تناقض أو تعارض أو اختلاف هو استحضار السياق الخارجي الملازم لنزول كلّ آية فنشأ عن ذلك ترتيب ذهنيّ منسجمٌ مترابط، وممّا ساعد في ذلك الاستعانة بسيناريو يوم القيامة :

– طمع المشركين في مغفرة الله تعالى: (والله ربّنا ما كنّا مشركين).

– ختْمُ الله على أفواههم لتتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

– بعد ذلك يودّ الذين كفروا لو أن الأرض تسوى بهم ولا يكتمون الله حديثا.

فزال بذلك الإشكال المتوهم بين الآيات.

6.3 دفع التعارض بين قوله تعالى:﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، المؤمنون: 101 وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾. الصافات: 27

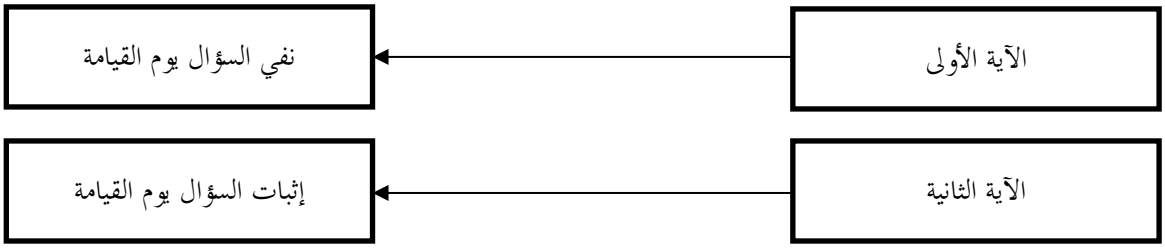

يلاحظ القارئ المبتدئ الذي لا معرفة له بسياق كل آية تناقضها بين هاتين الآيتين : وذلك لوجود كلمتين متناقضتين(لا يتساءلون) في الآية الأولى ، و (يتساءلون) في الآية الثانية ودفع هذا التعارض

يورده ابن عباس– رضي الله عنه– قائلا: إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فل أنساب ينهم و لا يتساءلون ، ثم نفخ فيها أخرى فإذا هم فيها ينظرون ، و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون "[28] فابن عبّاس يستحضر في جوابه أحداث يوم القيامة وما القيامة إلا مرتبة النفخ في الصور ، ثم يربط كل آية بحدثها المناسب فتبدو حينئذ الآيات متناسبات منسجمات لا تعارض فيها . و لا تناقض .

7.3 **الربط بين الكلمات التي جاءت في قوله تعالى : " افلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت و الى السماء كيف رفعت و إلى الجبال كيف نصبت و إلى الأرض كيف سطحت**" الغاشية 17–20.

الجمع بين السماء والإبل والجبال والأرض جمعٌ بين أشياء متباعدة قد يصعب على القارئ تلمس وجه العلاقة بينها، وقد استحضر علماء القرآن السياق بنوعيه الاجتماعيّ والتاريخي لهذه الآيات لكي يبيّنوا الجهة الجامعة بين هذه الأشياء، وافترضوا لهذه الآيات نوعين من المخاطَبين؛ فالمخاطب الأوّل هو: **أهل الوبر**، والمخاطب الثاني هو: **أهل المدر**.

فالنوع الأوّل من المخاطبين يستطيع إدراك وجه الترابط بينها، والنوع الثاني يغيب عنه ذلك، والسبب في ذلك أنّ أهل الوبر "كل انتفاعهم في معايشهم من الإبل فتكون عنايتهم مصروفة إليها ولا يحصل إلّا بأن ترعى وتشرب وذلك بنزول المطر وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثمّ لا بدّ لهم من مأوى يأويهم وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال، ثمّ لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها، فإذا نظر البدويّ في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور"[29]. فالجامع الذي يستطيعُ من خلاله القارئ أن يربطَ عناصر هذه الآيةِ هو استحضارُ البيئة المناسبة؛ وقد أجاد خطّابي حين مثّل لهذا التحليل بما يلي:

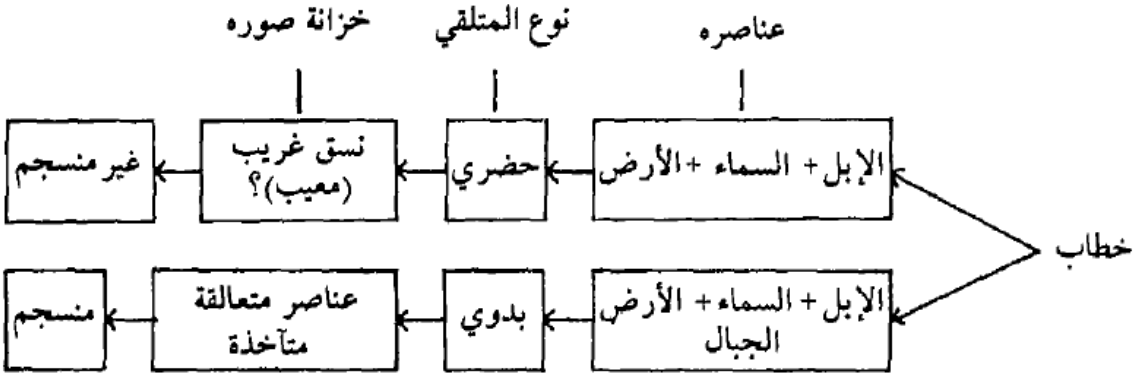

المصدر:خطّابي محمّد، لسانيات النّص، ص125

8.3 الربطُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾. البقرة: 60

يقع الإشكال في هذه الآية في مستوى العلاقة بين قوله تعالى: (وَإِذِ اِسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) وقوله تعالى: (فَقُلْنَا اِضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ)، فطلبُ السُقيا يكون الجواب عنه الإرشادُ إلى أماكن المياه ومواقعها، لكنّ الجواب لم يأتِ كذلك بل جاء أمرًا بضرب الحجر وهنا يقعُ الإشكال.

ل ابن عاشور مجيبا عن هذا الإشكال: "وذلك لأنّ الانفجار مترتب على قوله لموسى: (اضرب
صاك الحجر) لظهور أنّ موسى ليس ممّن يُشكّ في امتثاله، بل ولظهور أنّ كلّ سائل أمرا إذا قيل له افعل كذا
يعلم أنّ ما أمر به هو الذي فيه جوابهُ، كما يقول لك التلميذُ: ما حكم كذا؟ فتقول: افتح كتاب (الرسالة)
باب كذا"[30].

فابن عشور حاول أن يلتمس علاقةً بين جُزْأَيْ هذه الآيةِ مُستحضرًا الإطار الذي تترابط فيه العناصرُ في الذهن، إذ يقتضي ذلك الإطارُ أنّ لكلّ سؤالٍ جوابًا مستعينا ما يعرفه عن طبيعة المتكلّم والمخاطب (الله) و(موسى) إذ لا يُمكن لموسى النّبي أن يشكّ في امتثاله أمر ربّه بالضرب.

هذه الأمثلة وغيرها التي ترد منثورة في كتب علوم القرآن وخاصة علم أسباب النزول تزيدُ اليقين والإيمان بأهمية هذا العلم الذي به يُكشف المعنى المراد على الوجه الحقّ، وبه كذلك يُستعان في بيان الجامع الذي يجعل الآيات القرآنية متماسكة منسجمة وإن خلت من الروابط اللّغوية الظاهرة أحيانا.

4. خاتمة:

- الترابط بين أجزاء النص يتجاوز المستوى الدّلالي إلى المستوى التداولي في بعض الأحيان
- سبقت جهود علماء القرآن في استعمال مفهوم المعرفة الخلفية ومفاهيم نظرياتها لبيان أوجه الترابط والانسجام

بين آيات القرآن الكريم.

- يُعدّ علم أسباب النزول من العلوم والمعارف التي تعين قارئ القرآن الكريم لتبيّن وجه العلاقة بين تلك الآيات

التي يخفى وجه اتصالها في الظاهر.

- استطاع علماء القرآن أن يُبيّنوا وجه الترابط بين في القرآن الكريم من غير أن يعتمدوا على لغة النّص، ومن غير

أن يكون لهم دراية بمصطلح المعرفة الخلفية التّي تُعدّ أساسا لتحليل مبدإ الانسجام حديثا.

5- الهوامش:

[1] الازهر الزناد ، النص و الخطاب ، مباحث لسانية عرفنية ، مرز النشر الجامعي تقنس ، ط 1 ، تونس ، سنة 2011، ص 54 .

[2] رزيق بوزغاية، قيام الساعة في القرآن الكريم، مدلولية النص ومرجعيّته ، أطروحة دكتوراه جامعة قسنطينة ، إشراف: صالح خديش، جامعة قسنطينة، 2013/2012م، ص96.

[3] جمعان عبد الكريم، شكالات النّص، النادي الأدبي، ط1، الرياض، السعودية، 2009م، ص222.

[4] عيد بلبع، التداوليّة البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول العدد 66،، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ص40.

[5] جميل عبد الحميد حسين ،علم النص أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، مجلة عالم الفكر، العدد 02، سنة 2003م، ص15

[6](محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991م، ص61.61

براون ويول، ترجمة محمد لطفي الزليطي، تحليل الخطاب، جامعة الملك سعود الرياض، 1998م، ص283.[7]

محمّد خطابي ،لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، ، ص 61.[8]

براون ويول، تحليل الخطاب، ص 28.[99]

[10] شوقي البوعناني ، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ، مؤمنون بلا حدود، ط1، المغرب، 2018م، ص 151.

محمّد خطابي، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص67.[11]

[12] شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص154.

محمّد خطابي، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 68.[13]

. براون ويول، تحليل الخطاب، ص[14]215

. شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص 162.[15]

محمّد خطابي، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص67.[16]

ينظر: شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص 160.[17]

محمّد خطابي، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص69.[18]

[19] محمّد عبد الباسط عيد، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، مصر، 2009م، ص 19.42

[20].يُنظر: ابن قتيبة أبو محمد بن مسلم بن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط2،بيروت، لبنان، 2007م، ص50

ابن عقيلة المكيّ، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، جامعة الشارقة، ط1، 2006م، ج6، ص312.[21]

عبد الرحمن حبنكة الميدانيّ ، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ، دار القلم، ط1، بيروت، 1980، ص19.[22]

شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص 162.[23]

الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ، دار سحنون، تونس، 1997م، ج29، ص. [24]350

عصام بن عبد المحسن الحميدان، الصحيح من أسباب النزول،مكتبة المجتمع، ط1، السعودية، 1999م، ص80.[25]

نفسه، ص80.[26]

جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن، دار ابن حزم، ط1،بيروت، لبنان، 2008، ص425.[27]

ابن عقيلة، الزيادة والإحسان في علوم القرآن،ج6، ص 189.[28]

. محمّد عبد الباسط عيد، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن [29]101

الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج1، [30]516

6. قائمة المراجع:

– عيد بلبع، التداوليّة البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول العدد 66،، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ص40.

– شوقي البوعناني ، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ، مؤمنون بلا حدود، ط1، المغرب، 2018م، ص 151.

– رزيق بوزغاية، قيام الساعة في القرآن الكريم، مدلولية النص ومرجعيّته ، أطروحة دكتوراه جامعة قسنطينة ، إشراف: صالح خديش، جامعة قسنطينة، 2013/2012م، ص96

– جمعان عبد الكريم، شكالات النّص، النادي الأدبي، ط1، الرياض، السعودية، 2009م، ص222.

– جميل عبد الحميد حسين ،علم النص أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، مجلة عالم الفكر، العدد 02، سنة 2003م، ص15.

– عصام بن عبد المحسن الحميدان، الصحيح من أسباب النزول،مكتبة المجتمع، ط1، السعودية، 1999م، ص80.

– محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991م، ص64

– الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ، دار سحنون، تونس، 1997م، ج29، ص350.

– جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن، دار ابن حزم، ط1،بيروت، لبنان، 2008، ص425.

– ابن عقيلة، الزيادة والإحسان في علوم القرآن،ج6، ص 189.

– محمّد عبد الباسط عيد، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، مصر، 2009م، ص 42.

– عبد الرحمن حبنكة الميدانيّ ، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ، دار القلم، ط1، بيروت، 1980، ص19..

– الازهر الزناد ، النص و الخطاب ، مباحث لسانية عرفنية ، مرز النشر الجامعي تةنس ، ط 1 ، تونس ، سنة 2011، ص 54 .

– براون ويول، ترجمة محمد لطفي الزليطي، تحليل الخطاب، جامعة الملك سعود الرياض، 1998م، ص283.